أشكال وتقنيات توظيف المادة التاريخية في الرواية العربية المعاصرة

أ. نورة بعيو

جامعة تيزي وزو

لقد أظهرت جهود المبدعين الروائيين العرب أنّ ثمة رغبة شديدة وطموحا كبيرا لإبداع رواية تاريخية حقيقية حداثية، بعد أن حاول الروائيون الأوائل أمثال جرجي زيدان ثم نجيب محفوظ وضع أسس هذا النوع من الكتابات، وقد تعزز هذا المسعى أكثر في أواخر القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة مع أسماء بارزة في المشرق العربي، كما في مغربه مثل: عبد الرحمن منيف وبنسالم حميش وواسيني الأعرج وغيرهم، لاسيما إذا أضفنا معرفة هؤلاء الروائيين بأحدث تقنيات الرواية الجديدة وبأبرز إجراءات مناهج النقد المعاصر، الأمر الذي يسهل على المبدع التعامل الذكي والواعي مع المادة التاريخية، أي ما هي النقاط أو العناصر المهمة في تاريخ المجتمع التي يجب أن يسلط الروائي عليها الضوء لتكون درسا للحاضر المتأزم فكريا وسياسيا، ومن ثم تستشرف آفاقا جديدة مرتقبة قد تغيّر حياة الأجيال القادمة. فالتاريخ كمادة والرواية كفن يشتركان في تقنية مهمة هي تقنية السرد أو الحكي، فأضحى علما قائما ومع ذلك تتميز الرواية بتقنيات فنية أخرى أصبحت تمثل مركز اهتمام الباحثين والنقاد والقراء من ذوي الاختصاص.

كما يبقى التاريخ بارتباطه بالماضي وأبعاده الآنية والمستقبلية، يطرح جملة من التساؤلات والشكوك في الوسط النخبوي، فالتاريخ بشكل من الأشكال سرد لأحداث ماضية مع شخصيات في ظروف معينة.

ولما كانت وظيفة المؤرخ أن يحكي ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ كانت وظيفة الروائي كفنان أن يحكي ماذا يحدث؟ أو ماذا سيحدث؟ لذلك قيل « إنّ التاريخ هو

رواية ما كان، والرواية هي رواية ما يجب أن يكون »، إذن ما هو الفرق بين الرواية التاريخية والتاريخ بصورته الأكاديمية الصارمة؟

إنّ التاريخ أو السجل التاريخي يعلمنا عن مجموع الوقائع التي جرت في الماضي البعيد أو القريب، وكيف وقعت مفصلة أو إجمالا، يقدم هذا السجل «كمادة لذوي الاختصاص، ومع المادة ذاتها يستطيع الروائي أن يقدم لنا التاريخ في صورة حيوية تجتذب مختلف الفئات المتعلمة في المجتمع، فإذا كان المؤرخ يهتم بتقديم "جثة" التاريخ محاولا تشريحها وفهمها، فإنّ الروائي يحرك هذه الجثة في عمل فني يعيش بين الناس ويتفاعلون معه»[1].

فالرواية التاريخية عمل سردي فني لم يكتب بقصد أن يكون مرجعا في التاريخ، بل قد تصير من أهم المصادر التاريخية كإطار للبحث في منظومة القيم الأخلاقية والحضارية، وحياة الأفراد وعلاقتهم بمن يسير شؤونهم في مرحلة زمنية معينة من حياة المجتمع، والتي يكون السجل التاريخي الرسمي الجامد قد همشها أو تجاهلها بقصد أو بدون قصد.

ويمكن للفنان / الروائي أن يعود إلى هذا السجل كمصدر توثيقي فيقارن ويختار، طالما أنّ هذا التاريخ هو سيرة الأفراد والشعوب والمجتمعات بكل تجاربهم وإنجازاتهم وإحباطاتهم، فيهم الحسن والقبيح، الصديق والعدو، العالم والجاهل، الزاهد والماجن، الحاكم والمحكوم، الحكيم والمجنون، الأمين والخائن، من الرجال والنساء، الشيوخ والأطفال... الخ، يأتي الروائي إلى هذا الموروث المتنوع ويستفيد من كل جزئياته الظاهرة والخفية، ليقرأها ثم يعيد تشكيلها وفق رؤية خاصة به تتناسب وشروط عمله الفني.

إن قراءة متأنية وعميقة للعديد من الروايات التي وظفت التاريخ قديمه وحديثه عند مجموعة من الكتاب العرب المعاصرين مثل: إدوارد الخراط، جمال الغيطاني، عبد الرحمان منيف، حيدر جدر إميل حبيبي، بن سالم حميش، إلياس خوري،

جيلالي خلاص، أحلام مستغانمي، مرزاق بقطاش، واسيني الأعرج وغيرهم. فهؤلاء المبدعون شددوا على النقاط الآتية:

1. مراجعة التاريخ الرسمي الجاهز والاهتمام بالمهمشين والمغيّبين.

2. عدم الاكتفاء بالمكتوب الرسمي أو الهامشي بل الأخذ بالشفوي والمرويات الجزئية، أو الكاملة التي ترمم أو تضيء تنقض النص المكتوب.

3. اكتناه التاريخ للأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل[2].

ويبدو أن من أبرز الموضوعات التي هيمنت على الخطاب الروائي العربي المعاصر، موضوع التاريخ، وهو موضوع سابق انتهت لحظته لأن أي كاتب ينتج نصه الإبداعي ضمن بنية نصية سابقة أو معاصرة، وقد تكون هذه البنية إضافة أو تحويلاً للبنية المنتجة. أما إذا أعادها الروائي بالطريقة نفسها، فإنه أمام إعادة إنتاج النص لا إنتاج النص في حدّ ذاته، وتدخل هذه الظاهرة فيما سماه النقد البنيوي المعاصر بالتفاعل النصي أو تداخل النصوص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

ويتأسس التفاعل النصي على طابع الصدام المعبر عنه في النص الجديد الذي يخلخل النص السابق، يحدث هذا عندما يستند النص الجديد على رؤية مغايرة لما هو سائر على المستوى الإبداعي والإتيولوجي. فكيف يمكن اعتبار التاريخ كمتفاعل نصي في الخطاب الروائي العربي المعاصر؟

لقد صار واضحاً أن الروائي العربي المعاصر يتعامل مع التاريخ "كمتفاعل نصي"، فيجعل الرواية تستوعب مختلف المتفاعلات النصية بدرجات متباينة، وعلى مستويات عديدة، حيث نجد متفاعلاً نصيًا قديماً مثل الوقائع والشخصيات التاريخية، سواء أكان هذا التاريخ عربياً إسلامياً أو أوربياً / أمريكياً، علماً أنه يمكن أن يتداخل المتفاعل النصي الديني مع النص التاريخي كأن يشير النص إلى شخصيات دينية (أنبياء أو صحابة أو ملوك قدامى مثل ملكة سبأ..الخ) بواسطة استقطاع فقرات أو عبارات مأخوذة من النص القرآني والسُنّي أو الكتاب المقدس، أو الإشارة إلى بعض

الوقائع وكذلك الممارسات الدينية كالتمييز بين الحلال والحرام. كما يمكن أن نعثر على مقاطع للمتصوفة (ابن عربي والحلاج...الخ).

أما المتفاعلات التاريخية الحديثة فيقصد بها ما تداخل مع الواقع / الراهن الذي كتبت فيه هذه الخطابات الروائية عبر أحداث القصة مثل حرب 1948، وأزمة 1967، والعشرية السوداء في الجزائر مثلاً، وكذلك تداعيات الحرب على العراق أو على غزة، أو أحداث 11 سبتمبر وغير ذلك[3].

وأخيراً، فإن ظاهرة المتفاعل النصي تأتي متنوعة فتتفرع إلى: ميتناص (metatexte) أو مناص (paratexte) أو تناصية (intertexualité) بدرجات متباينة من تحويل وتضمين أو تحوير، وأيضاً استشهاد المباشر / الصريح وغير المباشر، كالاقتباس غير الحرفي...الخ.

هذا، ونضيف اعتماداً على ما ذهب إليه الروائي / الباحث واسيني الأعرج تقنية التفكيك «ذلك أن الروائي عندما يلجأ إلى استحضار النص التاريخي يقوم بتفكيك بنيته في بنية النص الثاني الذي لا يسمح لها أن تخرج أو تتجاوز حدود الكتابة الأدبية»[4].

وتدعم هذا المسعى بما وقف عنده أحد الروائيين العرب المعاصرين الذين خاضوا بشكل واسع نسبياً في تحقيق طموح إبداع رواية تاريخية عربية حقيقية تستفيد من عِبر الماضي ودروسه لتتخطى عقبات وأزمات الراهن المتأزم في أكثر من بلد عربي مشرقياً ومغاربياً. والمتمثل في الروائي الباحث عبد الرحمان منيف الذي اعتمد بعض التقنيات المرتبطة مباشرة بكتابة الرواية التاريخية وهي:

1. المتواليات الحكائية، وذلك عندما يتناول المبدع فترة زمنية طويلة وواسعة، بالإضافة إلى وحدة الأمكنة أو تشابهها، حيث يقوم الكاتب بدفع الزمن إلى الأمام، أو الارتداد به إلى الخلف كي يستقيم الحدث الروائي ويتكامل.

2 ـ التداعيات بعكس المتواليات، يوظفها المبدع عندما يتناول مساحة زمنية ضيقة مع تنوع الأمكنة.

3 ـ الخطوط المتوازية في تتبع الأحداث الروائية عبر مسار معيّن على أن تلتقي هذه الخطوط وتتقاطع في نقاط معينة لفترة زمنية محددة، ثم تفترق وتتلاشى من جديد[5].

ولكي تستثمر مثل هذه التقنيات في التعامل مع المادة التاريخية، لا ينسى عبد الرحمان منيف أن يؤكد على نقطة تبدو شكلية ولكنها مهمة في الوقت نفسه، تتعلق باللغة الموظفة في هذا الإطار. إذ المفروض أن يبتعد الكاتب عن اللغة القديمة والعتيقة التي هجرها القراء والمهتمون بهذا الجنس منذ زمن طويل، لأن مثل هذا النمط اللغوي يُثقل العمل الروائي ويُنفّر القارئ منه.

قال "مكسيم غوركي" في هذا الموضوع: «إن الكاتب الذي يتحدث عن طفولته، لا يتحدث بلغة الأطفال بحجة الصدق، وإنما يتحدث بإحساس الطفولة، بالطريقة التي يفكر بها الأطفال، وبهذا يجسد الطفولة ويجعلها أكثر صدقاً»[6].

وللاستدلال على تعامل الروائي مع التاريخي، يتطلب منه استيعاب مجموعة التقنيات والطرائق التي قد تكون مشتركة مع روائيين آخرين، أو ابتدعها من عنده لضرورة العملية الإبداعية والموضوع المتناول. فمثلاً للروائي عبد الرحمان منيف طريقته المميزة ، ولكل من نجيب محفوظ وجمال الغيطاني ونبيل سليمان، وواسيني الأعرج طريقته كما سيتضح لنا من خلال مدونة هذا البحث في قسمه الثالث الذي سيمس بعض رواياته كنماذج للرواية التاريخية الجزائرية المعاصرة، أو كما نجد مع الكاتب المغربي "بنسالم حميش" في روايته "العلامة" حيث تجليات النصوص الخلدونية واضحة لقارئ الرواية بواسطة توظيف تقنية التناص أو المناص بمختلف أشكالهما، منها مثلاً: إدراج النص التاريخي في البنية الروائية:

وللتمثيل نضيف روايته الأخرى "مجنون الحكم"، فقد اعتمد "بنسالم حميش" إدراج النص التاريخي كبنية متخللة في الرواية طريقتين: الأولى خارج السياق الروائي:

1ـ كمقدمة الرواية، لتصدير الرواية، وهنا لا يختلف عن "منيف" مثلا في "شرق المتوسط" أو "أرض السواد"، "وإبراهيم الكوني" في روايته "التبر"، كأن يقتطع

بعض المقاطع من كتب المؤرخين وأقوالهم، مستعيناً بقائمة من الإحالات والهوامش في آخر الرواية من باب التوثيق، والتي قام عليها تخييل نص "مجنون الحكم".

وحتى في مقدمة الأجزاء: الأبواب والفصول لا يفضل اللجوء إلى هذه الطريقة[7].

وفي الطريقة الثانية، أي داخل السياق الروائي حيث يتخذ النص التاريخي الخام شكلين:

1ـ احترام النص الأصلي بحرفيته دون إدخال أي تغيير، فيوضع بين قوسين، وتتراوح النصوص الموظفة بين طويلة أو قصيرة حتى نجد كلمة أو كلمتين فقط[8].

2 ـ قد يتماهى النص التاريخي مع النص الروائي ولاسيما عندما تتولى إحدى الشخصيات الكلمة في السرد، إذ يصعب معرفة من يتكلم بدقة، هل الشخصية الساردة بوصفها شاهدة على الوقائع التي تعرفت عليها من خلال قراءتها وبحثها المتواصل في صفحات التاريخ إلى سرد روائي. ولتحقيق ذلك يجب إحداث تغييرات في الخصوصيات المرتبطة بالسرد التاريخي، وهيمنة ضمير الغائب، وعدم مشاركة الروائي / المؤرخ في الأحداث...الخ. وكيف يحصل هذا التغيير في المادة التاريخية الخام؟ مثلاً ينتقل السارد من الزمن الماضي إلى الماضي المستمر في الحاضر، أو اعتماد التلاعب الزمني بواسطة تقنيتي السوابق واللواحق، مما ينتج عنه تكسير في النظام التسلسلي لزمن الأحداث. وفي الأخير عدم الالتزام براوٍ واحد ووحيد، بل استعمال مجموعة من الساردين أو الرواة لحدث أو أحداث مختلفة كما فعل صاحب "مجنون الحكم".

ويتعلق الشكل الثالث بتوظيف نوع الحدث التاريخي أي التركيز على الجانب النوعي للحدث التاريخي، بمعنى الفترات التي ركز عليها الروائيون العرب بعامة.

لقد تم الوقوف على نوعين من الأحداث ارتبط النوع الأول بالأحداث التي عايشت الظروف المظلمة في العالم العربي مشرقه ومغربه كسقوط الأندلس والاستبداد العثماني والمملوكي، وانتشار الفتن والحروب الطائفية والحزبية والهزائم المتتالية منذ وعد "بلفور" إلى هزيمة 1967 إلى حرب الخليج والعراق...الخ.

في حين ركز النوع الثاني من الأحداث على المراحل الإيجابية، وفي تاريخ المجتمعات العربية ماضيها وحاضرها، كتحسين العلاقة بين الحاكم والمحكوم حيث بدأت بوادر الوعي التعددي والديمقراطي تسود في بعض البلدان، أو الطور الذي عرفته وضعية المرأة العربية مقارنة بالماضي المظلم الذي فُرض عليها. ففي المادة التاريخية الخام، لا نقرأ الوقائع والأحداث، بل نتعرف على من كان وراءها مدافعاً أو رافضاً، مسيّراً أو محفّزاً. يتعلق الأمر بأحد مكونات الخطاب الروائي ، هو الشخصية الحكائية. فما هي أشكال ظهور الشخصية التاريخية داخل النص الروائي؟ لاحظ عدد من الدراسيين والنقاد أن هذا العنصر يتجلى من خلال ثلاثة مستويات: الأول: مستوى الاسم، أي الإشارة إلى أسماء شخصيات تاريخية (ملوك، خلفاء، حكام... الخ). والمستوى الثاني يتم بواسطة استدعاء أقوال الشخصيات التاريخية، وهي الطريقة الأكثر انتشاراً في الأعمال الروائية. كأن يعيد السارد أقوال إحدى الشخصيات التاريخية بشكل حرفي، أو تتداخل مع كلام السارد بشكل غير مباشر. والمستوى الثالث هو الاستدعاء بالفعل، أي استحضار الشخصية التاريخية من خلال أفعالها.

وتتدرج أشكال تقديم الشخصية التاريخية من خلال الراوي، أي الضمير الغائب (رواية مجنون الحكم) هذه الطريقة تدفع الروائي إلى توثيق المعلومات في آخر العمل أو الهوامش، أو بواسطة الشخصيات حيث يتحتم استخدام ضمير المخاطَب لسببين: أولهما رفض الراوي الإفصاح عن الكلام المتعلق بالشخصية، وثانيها عندما يختفي المتكلم شيئا ما أو جهله بما يحدث. كأن يتخفى المتكلم في مكان ما مثل غرفة النوم، فيعوضه الراوي ليسرد له ما حدث. أو بواسطة الشخصية التاريخية نفسها، حيث تقدم نفسها بنفسها عن طريق الكلام والحوار مع الشخصيات الأخرى.

وإذا نظرنا إلى أهم النماذج التي ينتقيها من القائمة الطويلة للشخصيات التاريخية التي واكبت الأحداث، أو شاركت فيها في إحدى الفترات التي ترصدها الرواية، نلاحظ أن عدداً من الروائيين العرب المعاصرين توقف عند نموذجين بارزين هما: الشخصية المناضلة والمواجهة لمختلف أشكال الظلم محلياً / وطنياً وخارجياً / أجنبياً، كتوظيف بعض

الشخصيات ذات الصيت الواسع في التاريخ العربي الإسلامي والعالمي مثل: أبي ذر الغفاري، ابن رشد، الحلاج، ابن عربي، تشي غيفارا، عمر بن الخطاب... الخ.

وتوظيف مثل هذه الشخصيات النموذج، هدفه إسقاط تاريخ هؤلاء الإيجابيين في عصرهم على حاضر سماته الظلم والسوداوية، وتدني إنسانية الإنسان إلى مرتبة الشيء / السلعة وسيادة الفساد الأخلاقي والسياسي، ناهيك عن الفساد الاقتصادي والمالي. بالإضافة إلى طغيان سمة الفكر الأحادي الوثوقي بصرامة لا مثيل لها.

بينما النموذج الثاني هو شخصية الحاكم المستبد/ الظالم، ولكنه ضعيف بقراراته الهشة، ومواقفه السلبية، وكذلك انغماسه في عالم الترف واللهو واللامبالاة لمعاناة شعبه ومجتمعه. وآخر النماذج الحاكم العادل مثل شخصية الفاروق / عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما. إلا أن مثل هذا النموذج قليل في المرحلة المعاصرة بسبب اتساع دائرة الحكام والسياسيين المتجبرين الظالمين للعامة من أفراد المجتمع[9].

هذا، وقد نجد بعض المبدعين في مجال الرواية التاريخية العربية المعاصرة يعتمد طريقة فيها كثير من التعقيد، حيث يعيد كتابة التاريخ في الراوي لأن كل كاتب / روائي يؤول التاريخ كما شاء تبعاً لقناعاته واتجاهه الحزبي من جانب، ومن جانب آخر، أن الذي دوّن التاريخ في الأول عرضه للتشويه والتحوير تحقيقاً لرغبة الحكام والأقوياء، لذلك على الروائي العربي المعاصر أن يكون عبقرياً فيُسائل الماضي برؤية جديدة ومغايرة. ويظهر هذا المسعى في رواية "مجنون الحكم"، فقد قسم المؤلف روايته إلى أربعة أبواب. تطرق في كل باب إلى عرض قصة إحدى الشخصيات الحاكمة، وطريقة حكمها لرعيتها بنظرة الروائي الفنان لا برؤية المؤرخ المنفذ لأوامر جهة معيّنة.

وأخيراً نلمس في رواية "مجنون الحكم" مثل ما يشبه الكتاب التاريخي، أي أن الروائي وظّف شكل الكتابة التاريخية على صعيد الأسلوب. كأن يحاكي المؤلف طريقة أحد المؤرخين في تسجيل الأحداث وتدوينها. فرواية "بنسالم حميش" هذه يشبه أسلوبها ما يلاحظ في "البداية والنهاية" "لابن كثير"، و"الكامل في التاريخ" "لابن

الأثير"، حيث ظهر التأثر به حتى في منهجية الكتابة من خلال ذكر السنة ثم الاسترسال في عرض الأحداث التي عاشتها.

وعن اللغة المستعملة في مثل هذه الروايات، فهي لغة السرد التاريخي التي تتجلى عبر أقوال المؤرخين والشخصيات التاريخية، أو اللجوء إلى اعتماد لغة القدامى في تحرير السجلات والمراسيم والقرارات كما مثلته رواية "مجنون الحكم" بشكل واضح[10].

وعليه، تبقى خصوصية كل روائي في التعامل مع المادة التاريخية تميّزه عن غيره، وإن تقاطعت في جوانب عديدة، لعل هذا يعود إلى طبيعة الموضوع الذي استوقف قريحة الروائي، وشدّ انتباهه في مرحلة متأزمة في ماضيها القريب، وتتصاعد أزمتها يوماً بعد آخر، لأسباب كثيرة قد تكشف عنها المدونة التي سندرسها في القسم الثاني من هذا البحث الذي يكون منطلقه طرحاً نظرياً للمنهج الذي سيُعتمد في الدراسة والتحليل، ثم تحديد محتوى المدونة بعرض عوالمها الروائية بحسب صدورها، ونتبعها بتطبيق بعض الإجراءات المنهجية المحددة سابقاً، كوسيلة تساعدنا على كشف موضوع المقموعين في روايات "واسيني الأعرج" من حيث: نوعيتهم، ومواقفهم وردود أفعالهم في مراحل تاريخية محددة، بالإضافة إلى استخلاص الطرائق / التقنيات التي وظفها الروائي في هذه الروايات، أي هل كررها أم أضاف جديداً يجعله يختلف ويتميز عن غيره من المبدعين المغاربة من جهة، والجزائريين المعاصرين من جهة أخرى؟!

وكل ذلك يدخل فيما يعرف في النقد المعاصر بالانفتاح الدلالي على أكثر من صعيد، من جراء تعدد القراءات المحكومة بضوابط وقوانين معينة تحول دون تحويل هذا الانفتاح إلى فوضى من التأويلات اللامحدودة. فالروائيون وهم يعودون إلى قراءة التاريخ المسجل في كتاب رسمي وثوقي «يشكل في حقيقة الأمر اختبارا للذات حتى تتعرف أكثر على ملامحها الثقافية والحضارية التي ربما ستؤدي إلى خلق الفعل الحافز في الحاضر والمستقبل، كلما قرأ التاريخ مرارا وتكرارا كلما كانت هناك فرصة لفهم الذات، وفهم الذات ضروري لأخذ العبر وتقدم الشعوب »[11]، حيث سينظر إلى التاريخ ليس باعتباره مادة منتهية وجامدة، بل باعتباره ممارسة فكرية

واعية في خدمة الحاضر، وفتح آفاق إيجابية للأجيال القادمة، وهذا هو ربما الفرق بين الرواية التاريخية التعليمية والرواية التاريخية الحقيقية التي تقرأ وتعيد قراءة التاريخ، فتسد نقصا هنا، وتضيف عنصرا هناك وفي الحالتين تنظر إلى السجل التاريخي بعين ناقدة واعية، تجاه كل المقدسات والمسلمات.

الهوامش:

1. انظر / قاسم عبده قاسم: إعادة قراءة التاريخ، كتاب العربي 78، وزارة الإعلام، الكويت، ط 1، أكتوبر 2009، ص 76.
2. انظر / نبيل سليمان: جماليات وشواغل روائية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (ب/ ط)، 2003، ص 142.
3. انظر / سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي -الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2001، ص ص 103 -108.
4. واسيني الأعرج: الرواية التاريخية أوهام الحقيقة، مجلة الثقافة، ص 22.
5. انظر / عبد الرحمان منيف: رحلة ضوء، ص ص 135 -136.
6. انظر / عبد الرحمان منيف، رحلة ضوء، ص ص 135 -136.
7. انظر / المصدر نفسه، ص 113 مثلاً.
8. انظر / بنسالم حميش، مجنون الحكم، ص ص 11، 44 - 45
9. انظر محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، ص ص 102، 106 -115، 110 - 117، 119 -122، 132 -133.
10. انظر / محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، ص ص 12 -13، 31، 206 - 207.
11. قاسم عبده قاسم، إعادة قراءة التاريخ، ص 82.